المحاضرة الثالثة
التعريف بالسياق ومكوناته

ينقسم السياق إلى نوعين رئيسيين: السياق اللغوي، والسياق غير اللغوي.

أولا: السياق اللغوي:

يتمثل في النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم، وهذا لا يشمل الجمل وحدها، بل ينتظم الفقرة أو الصفحة أو الباب، أو الكتاب كله.

والذي يجعلنا نحدد السياق اللغوي بما سبق عدة أمور، منها:

1-قد تكون بالجملة المراد فهمها أو تحليلها إشارة إلى شيء أو معنى سابق في جملة سابقة، ويظهر هذا بوضوح فيما تشير إليه أسماء الإشارة، وما يعود عليه الضمير.

2-أن المفردات تتعرض في التراكيب إلى ألوان من التغير الدلالي، فاللفظة المفردة لها دلالة قد تختلف إذا وردت في أسلوب، أو تركيب يختلف عن الأسلوب أو التركيب الأول، وحينئذ فالسياق وحدة هو الذي يستطيع أن يبين المقصود من تلك الألفاظ.

ويمكن التمثيل على ذلك بكلمة (ضرب) التي قد تأتي بالمعاني الآتية: أدّب أو عاقب، خبط أو صدم، دق، حدّد أو عيّن، أقام أو أسَّس، تعجّب، سافر أو سعى، رشق أو أصاب، هدم ودكَّ، لفح، أعرض، لطم، اضطرب أو تحرك أو مار... إلخ.

3-عندما نسمع جملة أو نقرؤها نرى الكلمات التي تشتمل عليها يفسر بعضها بعضًا، فإذا كانت منها واحدة غير مألوفة لنا حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص.

ثانيًا: السياق غير اللغوي:

يتضمن السياق غير اللغوي العناصر الآتية:

1-مجموع الأشخاص المشاركين في الحدث اللغوي سلبًا وإيجابًا، أي شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع إن وجدوا، وما لهؤلاء الأشخاص جميعًا من خصائص متعلقة بأشخاصهم، وبالعلاقات القائمة بينهم، ودورهم أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن لآخر في الكلام؟ ويتضمن كذلك الأحداث غير الكلامية التي تصدر عنهم، أو التي يتخذونها كالإشارات وتغيرات

الوجه والانفعالات، وما إلى ذلك.

2-الموضوعات والأشياء المتصلة بالموقف الكلامي، أي العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام... إلخ، وكل ما يطرا أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه.

3-الثقافة، وهي كل أشكال ونظم الحياة التي تكونت عبر التاريخ، وتشمل تلك الشكال والنظم كل ما يتصل باللغة وبطريقة الحياة والعادات والتقاليد والمعتقدات، وأنماط السلوك السائدة والمبادئ الأخلاقية والموسيقى والفن.

4-آثار الكلام الفعلي، أي أثر النص في المشتركين كالإقناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك.. إلخ؛ لأنه إذا لم تحدث اللغة استجابة من السامع فقد فقدت وظيفتها، وسواء أكانت الحالة العقلية الناجمة عن سماع الكلام عند السامع تطابق تمامًا الحالة العقلية التي في ذهن المتكلم أو لا؟ فإن الصورة أو الفكرة التي تتكون في ذهن السامع تستدعي منه استجابة من نوع ما، وكثيرًا ما تعجز اللغة عن أداء وظيفتها لاختلاف الحالتين العقليتين في ذهن المتكلم والسامع.

ولا يمكن الفصل بين جانبي السياق، فهمًا متعاونان، فالسياق اللغوي أساس في تحليل المعنى، والسياق غير اللغوي يضيف إليه جديدًا أو يعدل من المعنى، أو يبين وجوهًا مختلفة، أو فروقًا أو ألوانًا أو لمحات جديدة من الدلالة.

وتبدو أهمية السياق بجانبيه، في كونه الأساس الذي نعتمد عليه في الوصول إلى المعنى اللغوي وتحديده؛ لأن دلالة اللغة لا تفهم إلا في ضوء الموقف الكلامي، والإلمام بكل عناصره، فاللغة ليست مجرد ضوضاء تلقى في الهواء، ولذلك فإن كل قرينة مصاحبة للنشاط الكلامي يجب التنبيه عليها؛ لأنها قد تكون الوسيلة إلى إدراك المقصد الحقيقي للمتكلم حتى لا يكون حكمنا على كلامه خاطئًا فيحمل على غير قصده.

إعادة بناء السياق للنصوص المكتوبة:

من المعلوم أننا نستعمل اللغة منطوقة ومكتوبة، واللغة المنطوقة يكون السياق غير اللغوي حاضرًا بكل عناصره في الموقف المعين، أما اللغة المكتوبة فالسياق فيها يحتاج إلى إعادة بناء.

ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أن الكلام المكتوب يفقد عنصرين مهمين من عناصر البحث، هما النطق الفعلي والمسرح اللغوي أو موقف الكلام، وما يتصل به من ظروف وملابسات.

وتبدو أهمية الجانب المنطوق من اللغة في اشتماله على عناصر تحرم منها اللغة المكتوبة، كالنبر والتنغيم وما يمكن أن يسمى بالفواصل الصوتية كالوقفات، ولهذه العناصر دور بارز في التعبير عن المعنى اللغوي المراد، وبدونها نضل الطريق إلى هذا المعنى، بل أدى اعتمادنا على الجانب المكتوب من اللغة إلى غموض كثير من النصوص في العربية المعاصرة.

هذا من الناحية العملية، أما من الناحية العلمية فيكفي أن نعلم أن الموقف بالنسبة للكلام إطار عام ذو وحدات وعناصر متكاملة متفاعلة، وما الكلام حينئذ إلا عنصر واحد أو وحدة من هذه الوحدات، فعزل الكلام عن الموقف إذن يحرمه دفء الجو الطبيعي، ويحيله إلى شيء مشوه ممسوخ أو شيء جاف جامد جمود أمثلة المعلمين في فصول تعليم اللغات، أما النطق الفعلي للكلام فهو بمثابة اللب والجوهر منه، وفقدان هذا النطق يسلبه أهم خواصه، وهي الخواص الصوتية، ومعنى هذا – بكل بساطة - استحالة دراسة الكلام دراسة صوتية، وتعقيد دراسته على أن مستوى لغوي آخر.

دراسة اللغة المكتوبة إذن تقضينا أن نعمل على تعويض هذا النقص، وذلك بتوجيه عناية خاصة إلى هذين العاملين المفقودين، وهذا معناه ضرورة إعادة السياق مرة أخرى للنص المكتوب، أو إعادة النص المكتوب إلى سياقه الذي نتصور أنه سيق فيه؛ لأنه إذا كان المقال المكتوب لا يقع في أثناء قراءته في وقت لاحق في مقامه الاجتماعي الذي كان كان له في الأصل، فإن هذا المقام الأصيل من الضروري أن يعاد بناؤه في صورة وصف له مكتوب، حتى يمكن للنص أن يفهم على وجهه الصحيح؛ لأننا لو حاولنا فهم المقال منفصلاً عن المقام لجاء فهمنا إياه قاصرًا، ومبتورًا، وخاطئًا.

بناء السياق اللغوي:

عرفنا أن هذا الجانب من السياق يفقد عنصر النطق الفعلي، وهذا يعاد بناؤه عن طريق تطبيق ما نسميه بمبدأ (مضمون النطق)، ومعناه أن نلجأ إلى النص المعين - بعد وضعه في مسرحه المناسب الذي خلقناه من أجله - فنحاول نطقه نطقًا طبيعيًا لا كلفة فيه ولا صنعة على شريطة أن يكون

الناطق ممثلاً صحيحًا لبيئة النص، وأن يكون مثقفًا ثقافة لغوية تناسب المستوى الذي صيغت على أساسه اللغة المكتوبة الخاضعة للدرس والبحث، والمثقف الذي يوائم العربية المعاصرة من حيث بيئتها ومستواها اللغوي ينبغي ألا يقل –في نظرنا- عن متخرج من إحدى الكليات الجامعية المعنية باللغة العربية وشئونها على مستوى التخصص، لا التثقيف العام.

ويمكن إعادة بناء السياق اللغوي عن طريق ثلاثة أمور مجتمعة:

الأول: نطق الصوت نطقًا صحيحًا، وتتضمن هذه الصحة المطلقة للكلام نطقه مشكلاً بحركاته القصيرة، وعلامات الضبط الأخرى من شدة، وتنوين وغيرها.

الثاني: الإشارات والنصوص التي يتدخل بها الكاتب ليصف طريقة النطق، ويبدو هذا واضحًا في لغة الحوار، وهي أقصى ما يمكن أن يقوم به الكاتب، ويبذله لنقل المنطوق أو تصويره. ويمكن التمثيل لذلك بما يلي:

- وتساءل فيما يشبه التنهيد: غلبنا على أمرنا؟!
- تردد صوته في إعياء: ضاع كل شيء، ثم بنبرة وشت بنشوة طارئة: لم يضع شيء لا يمكن تعويضه.
- قال باستسلام: بالحق نطقت يا حضرة المخبر.
- قال المخبر بحدة: دع القرار للقاضي.
- فقال الشاب محتجًا: إني بخير.
- فهتفت المرأة في كبرياء: كانت ايام بلاء واحتلال.
- فقال برجاء: تعالي إلى بيتي.

الثالث: النظر في طرق الأداء الصوتي، ومحاولة تصور العناصر الصوتية المفقودة، كالنبر والتنغيم والفواصل الصوتية، ويمكن الإفادة من علامات الترقيم التي ترشدنا إلى الفواصل الصوتية أو التنغيم المعين الذي تنطق به الجملة. فإذا لم توجد هذه العلامات اعتمدنا على خبرتنا اللغوية في مثل هذه المواقف، لكي نصل إلى النطق المطلوب.

بناء السياق غير اللغوي:

يعاد بناؤه عن طريق خلق أو تصور موقف مناسب للنص المدروس على أساس من خبراتنا الفعلية بالمواقف الحية الموجودة بالفعل - أو التي كانت موجودة - في البيئة أو المجال الذي ينتمي إليه هذا النص، وفي كل الحالات يجب أن يكون الموقف المخلوق ملائمًا قدر الطاقة للنص باعتباره وحدة من

وحدات هذا الموقف.